

**ماذا بعد وباء - كوفيد -19- COVID؟
في سوسولوجيا إعادة تشكيل العقل الجزائري**

**What is after Covid 19?: in the sociology of the
reformulation of the Algerian mind.**

د. علي سموك

**باحث في علم الاجتماع
جامعة باجي مختار
عنابة - الجزائر**

semmoukali@yahoo.fr



ماذا بعد وباء - كوفيد -19- COVID؟ في سوسيولوجيا إعادة تشكيل العقل الجزائري

د. علي سموك

الملخص:

تنخرط هذه المحاولة في إطار السوسيولوجيا النقدية لبنية العقل الجزائري "المأزوم معرفيا" كمعطى واقعي تتمظهر أزمته في ممارسات اجتماعية مأسسة.

لا شك أن الراهن الوبائي أبان عن الأنساق الخفية لأزمة العقل الجزائري التي تجلّت في أنماط التفكير المهترئة المهيمنة على الحقل الاجتماعي الجزائري، ومن ثمّة أظهرت مكامن العجز الاستراتيجي والوهن العقلي الذي يحول وخلق أدوات إنتاج المعرفة العلمية البحثية، في عالم متحول، تشكل المعرفة إحدى أدوات القوة والهيمنة.

الكلمات المفتاحية: العقل الجزائري - العجز البنيوي - الهوية - العولمة - الأنساق المعرفية - الثقافة العلمية البحثية.

Abstract

This attempt is carried out in the context of the critical sociology of the structure of the Algerian mind, "known as zombie," as a reality given that its crisis is reflected in consistent social practices. There is no doubt that the current epidemiological situation has demonstrated the hidden nature of the Algerian mental crisis, which has manifested itself in the subdued patterns of thinking that dominate the Algerian social field.

Keywords: Algerian reason, structural disability, identity, globalization, knowledge patterns and scientific research culture.

1- في إشكالية الماضي وهيمنته:

إن ثقل الماضي وهيمنته على الوعي والهوية في المجتمع الجزائري يستدعي ضرورة الاشتغال على أبنية العقل الجزائري "المهترئة" كمعطى واقعي لا بدّ من التأسيس عليه، دون أن نغفل "أطروحة" أولئك الذين يوظفون الماضي الميّت بالمفهوم "النييتشاوي" NIETZICHÉEN الذي تمأسس في الرّاهن المجتمعي الجزائري ويشكّل أحد مكوّناته المركزية في لعبة الهوية.

إن هذه التشكيلة المكوّنة لبنية الوعي في العقل الجزائري، من السداجة تجاوزها "إبستمولوجيا" عند محاولة الانخراط في عالم متغيّر لا نملك فيه أية أداة لإعادة تشكيله أو توجيه فواعل متغيراته الاستراتيجية. لا نحتاج هنا للتذكير، بأن كثير من الجزائريين يتقاتلون بدوافع من ماضٍ يجهلون تشكيلته التاريخية وهويّة "المقاولة الأخلاقية" التي مأسستها في التمثلات والمخيل.

إن هذا الواقع، يؤثّر عن تواجد خلل بنيوي متحكّم بالرؤى الفكرية والاشتغاليّة وتمظهراتها في السلوك – كحالة هابيتوسية HABITUS – بالمفهوم "البورديفي" BURDIVIEN تنزع دون وعي إلى إعادة إنتاج التخلّف.

لذا، نجد أنفسنا في البدء، ملزمون "إبستمولوجيا" بتحرير أدوات الإجابة عن سؤال التاريخ والحضارة وعجزها البنيوي عن تفسير ظواهر العالم في إطارها الواقعي الكليّ والمتداخل. نعي أن هذا التركيب "المشكّل أو المبني" بمنطوق "أنطوني غيدنز" ANTONY GUIDENS يستدعي سلسلة الوقائع والأحداث، التي أوصلت الاجتماع الجزائري إلى حالة "الغناء الحضاري".

2- أزمة المناهج الكلاسيكية والانحباس الإبستمولوجي:

أمام عبء التخلّف بكل أبنيته وتعاضم تكلفته على المستوى المجتمعي أدركنا أن أدوات النّظر بالمفهوم "الخلدوني" أو مناهج الفهم الكلاسيكية صارت قاصرة عن استيعاب الاجتماع الجزائري الرّاهن، وفي السياق ذاته أدركنا عجزها التأسيس لانفتاح يستوعب "المحلّي والكوني" لذلك، يبدو "فعل الانبعاث" داخل هذا الفضاء مشروط بتصحيح أدوات اشتغال العقل من منطلق كيفيات مقارنة "المتغيرات والإكراهات والانتظارات".

إذا، لا يمكن "زحزحة" بالمفهوم "الأركوني" ARKONIC ما هو عائق إدراكي أو إبستمولوجي، والذات الجماعية الجزائرية، مغترية تستلهم أدوات المعرفة من "ماضٍ ميّت وأدوات تفكير ومناهج مهترئة"، فجاءت المحصّلة إعادة إنتاج العطب بحمولة تستدعي أسئلة "ما بعد السّوسولوجيا".

تعلّمنا "أركيلوجيا" ARCHIOLOGIE المجتمع الجزائري و"الانقسامية" LA MITOTIQUE في السّوسولوجيا الكولونيالية" في منطوقها الموضوعي أن العقل الجزائري في تجلّيه العلمي عبر تاريخه الحديث، تدنّى أثره، إن لم نقل غاب فعلة وحالة لا فاعليته تبدو نتاجا "لنمطية الاشتغال" التي تحكم سيره. فالعقل ينتج فعلة في حدود تلك الأنشطة ومن خلال إمكاناتها".

وفي ظل غياب البعد التأسيسي للهوية المنفتحة لمشروعه الحضاري الحدائى نجد أنفسنا في حالة انسجام مع "باراديغم PARADIGME" - "الجابري" الذي يوسّع من حجم الفجوة، برد هيكلتها إلى جدلية الاسترجاع التاريخي وإكراهات الواقع.

لقد كرسّت هذه "الجدلية" إكراهات العولمة بمضامينها الهوياتيّة، "فانبنى" واقعا جديدا - وطارئا - لا ينكره أحد، فأضحى الحقل المحلي يضيق بالمتصارعين على التمثيل الهوياتي.

3- العولمة تقوم على الاختزال .. ونحن فيها صفر حضاري:

كثيرا ما يلجأ البعض -من قبيل الجهل - بالموضوع، إلى اختزال العولمة في ظواهر الانفتاح الاقتصادي وتراجع حدود الزمان والمكان، وفرض منظومات اقتصادية وثقافية واجتماعية جديدة غير أن الظاهرة أوسع وأعمق من ذلك الطرح الفج. فالعولمة ليست مجموعة ظواهر فرضت قيمها المادية والرمزية على المجتمعات العاجزة عن إنتاج منظومات فعّالة، على شاكلة المنظومة الغربية التي تشكّل حالة في التاريخ، أنتجت أنساق معرفيّة، ساهمت في نهضة حضارية جوهرها "الرأسمال الذكي" تستمد جذورها من أبنية "المخيال الإغريقي روماني" المفعم بثقافة الاستبداد والاستبعاد للآخر المختلف وتشتغل على إعادة تشكيله إلى كائن يصلح للحاجة الرأسمالية.

من الكتب التي أصدرها مروج نظرية "نهاية التاريخ" "فرانسيس فوكوياما FRANCIS FUKUYAMA" - مستقبلنا ما بعد البشري - (عواقب ثورة التقنية الحيويّة) وهو في الأصل مقال كتبه سنة 1999 في الذكرى العاشرة لمقاله الأصلي المعنون "نهاية التاريخ" والذي يتبنّى فيه رؤية الفيلسوف "هيجل HIGEL" الذي قال: "إن التاريخ انتهى عام 1806 بانتصار - نابليون - وهو ما قاله: -فوكوياما - في سقوط الشيوعية عام 1989.

لقد توصل إلى أن الحجّة الوحيدة، التي لم يكن من الممكن إبطالها هو أنه لا يمكن أن تكون هناك نهاية للتاريخ ما لم تكن نهاية للعلم، حيث يحاول أن يربط بين العلم والمستقبل السياسي للبلدان الغربية الليبرالية.. وقبل أن يمضي في التحليل في كتابه الأخير، يشير إلى أن هجمات 11 سبتمبر، لا تشير إلى صدام الحضارات، بل إلى أن فعل "السلفية الجهادية" بئس، قام به حرس المؤخّرة وسيسحق في المستقبل بفعل التحديث.

وفي مقال آخر، يحاول "فوكوياما" أن يوجّه الرأي العام نحو خطر "الإرهاب البيولوجي" كتهديد، إذ يشير إلى الحاجة لتحكم سياسي أكثر في استخدامات "العلم والتقنية".

ومن خلال توظيفه لروايتين: الأولى "لجورج أورويل GEORGE ORWELL" صدرت سنة 1984 والثانية "عالم شجاع جديد - ل. ألدوس هاكسلي ALDOUS HUXLEY" - ينبّه فيها إلى مخاطر استعمال "التقنية الحيوية - البيولوجيا" واحتمالية أن تقوم بتغيير الطبيعة البشرية.

وبالتالي، تنقلنا إلى مرحلة ما بعد البشري من التاريخ، وهذا التطور له تأثيره على الديمقراطية الليبرالية وعلى طبيعة السياسة في حدّ ذاتها.

وحيث يتساءل: ما الذي يجب علينا فعله إزاء التقنية الحيوية التي ستخلط في المستقبل بين الفوائد العظيمة المحتملة وبين تهديدات قد تكون مادية ظاهرة أو خفية؟
ومن ثم، يستطرد "فوكوياما": يجب علينا استخدام سلطة الدولة لتنظيم ذلك وبناء مؤسسات تفرّق بين الاستخدامات الجيدة والسّيئة للتقنية الحيوية ويرى أن التدخل العلمي في "الجينوم" يمكن أن يدفع نحو تغيير الطبيعة الإنسانية لتكون أكثر ديموقراطية وحرية. ومن هذا المنطلق، يضعنا هذا المفكر على المحك الرّاهن المتمظهر في انتشار وباء "كوفيد-19".

4- العالم ما بعد البشري.. يشكّل من دوننا:

واستئناسا بـ"أكسيوم - AXIOME" - فوكوياما - يتجه أغلب الفاعلين في المعرفة الاستشرافية إلى تبني الفرضيتين التاليتين:

* الأولى: أن العالم ما بعد البشري، سيشبه كثيرا عالمنا هذا، أي أنه يمتلئ بالحرية والمساواة والرخاء مع رعاية صحية أفضل وأعمار أطول، وربما ذكاء أعلى من معدلات الذكاء الحالية.

* الثانية: قد يصير العالم أكثر هرمية وتنافسية ويتميز بالصراعات الاجتماعية، ويصبح عالما تضيع فيه "فكرة الإنسانية المشتركة" وربما ما تصوّره رواية "عالم شجاع جديد" فالجميع يتمتع بالصحة والعافية لكن الجميع ينسى ما يعنيه "الأمل أو الخوف أو الصراع".

إن هذا الخطاب "القديم - الجديد" نتلمّس جذره الإثنولوجي الذي بدأ يتشكّل - كنسق معرفي - مع "بيار كلاستر PIERRE CLASTRES" حيث يتضمّن في جانب منه محاولة الكشف عن "الاستبعاد" الذي مارسه الغرب مع الآخر بإقصائه للآخر من الاجتماع يدل على ما ينتاب الذات الأوروبية من شك واضطراب، كما يقول: "هشام جعيط" تكشف عمليات مارسها الذات الغربية على نفسها من خلال نفها "للمجنون و الشاذ و المريض والطفل" وهكذا، تبدو جميع المحاولات تتأسّس إلى النظر للآخر في ميدان "التحليل النفسي أو الإثنولوجيا أو الاستشراق" ذلك لأنّ نظرة الغرب إلى الشرق تتضمّن مقدارا من النّفي له - وحقيقة النّفي - "نفي الذات للآخر" تعني أن ننفي عن الآخر ما تمتلكه "نحن" وعليه، فإنّ كل معرفة بالآخر هي وجه من أوجه المعرفة بالذات.

5- العقل الجزائري لا يفكر عقلا:

ترفض "أكسيوماتيا" الباحثة اليابانية "كازوكوتومي KAZOUKOU THORMY" - الباراديغم - الذي يعتبر العلوم والتكنولوجيا قضايا مستقلة عن ثقافة أي مجتمع معيّن، فلكل ثقافة طرقها التقليدية الخاصة للوصول إلى المعرفة وللعمل، كما أن النقلة التوعوية في تطبيقات المعرفة تعتبر عاملا من عوامل التقدم الديناميكي في المجتمع.

وفي ظروف مواتية يمكن لهذا العامل أن يكون حافزا ممتازا للإبداع الداخلي. ومع هذا المنحى يتماهي "روني ماهو RENÉ MAHEU" ويسلم "أنطولوجيا" أن لا علميّة المعرفة إلا بالروح التي تعطيها معنى لدى

الإنسان ومغزى من حيث تطبيقها على الأشياء. فالعلم ليس نسقا من الصيغ والوصفات التي من تلقاء ذاتها تمنح الإنسان سلطات على الأشياء والمخلوقات.

وفي خضم اشتغال جدلية هذه الأطروحة تتجلى إشكالية إنتاج المعرفة وتطبيقاتها التكنولوجية، حيث كثيرا ما نادى النخب المنخرطة في القضايا الإستمولوجية للمجتمع الجزائري، أنه لا يمكن حلها باستيراد التقنية الجاهزة بشكل من الأشكال. وأن التقدم لن يتحقق بصورة، إلا بالخلق والدعم حسب سياق ينمو داخلها في جوهر الحقيقة الإنسانية من الوجهتين الاجتماعية والثقافية للعلم ومن ثمة، يخلص "روني ماهو" إلى أن العلم في حد ذاته مجتمع يحتوي على شيء استثنائي، هو امتلاكه بغرض بناء إنسانية الغد، كما تستدعي اليقظة الإستيمولوجية، إدراك كل فعل للثقافة والعلم، أيًا كانت مادته أو وسائله أو دوافعه أو حجمه أو ظروفه هو أساسا فكرة من الإنسان وحول الإنسان.

إن الثقافة العلميّة البحثيّة بلغت ذروتها حيث وضعت العالم في سياقات جديدة من حيث إعادة تشكيل موازين انتشار القوى السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة على خارطة النفوذ العالمي.

ينجز كل هذا والعقل الجزائري يحتفي "بنصب الجهل" ويعيد إنتاج "سلفيات ثقافة الموت"، بإعمال "جدل المعادلات الصّفريّة" فأنتج المجتمع الجزائري نمطا بشريا لا يفكر عقلا، بل يستجيب غرائزيا لمنظومات الإثارة في العالم الغربي المهيم، فأضحى العقل الجزائري يستجيب "ارتكاسيا" للحاجة المعرفيّة ومن ثمة للحاجة السّوقيّة للعقل الغربي.

6- الرّاهن البوّائي .. وعالم الغد الذي نغيب فيه:

طرح الباحثون في "علم المستقبلات" إشكالية في غاية الأهميّة، عن عالم يغيب فيه العقل الجزائري كفاعل حضاري له موقعه في التّشكيل الجيوستراتيجي الجديد لإنتاج المعرفة.

إن عالم الغد، أعلن موت "الكاريزما السياسيّة والدينيّة" لتتحول من "كاريزما الشخص" إلى "كاريزما الآلة" أي أنّ الإنسان لم يعد له أيّة أهميّة على صعيد الفعل، فتم من التّاحية الواقعية التحوّل من شخصانية القلب إلى شخصانية العقل وعلى هذا "الباراديجم" الجديد أسّست العولمة الجديدة "فكرة الهيمنة الأحادية المطلقة" ولهذا السّبب أعلن "فوكوياما" نهاية التاريخ فقد انتصر نظام اقتصاد السّوق الذي يقوم على الليبرالية والتحرّر.

وبالعودة إلى واقعنا المجتمعي، فهو يزخر "بأوثان الماورائيات" التي تكبح كل أعمال للعقل النقدي، وتناوى حامله والمشتغل بأدواته بشتى أنواع التكفير والوصم بالزندقة والنفي خارج الحقل الاجتماعي أو الإحالة على مذبح الإلغاء من الوجود، مقابل ذلك تمّ التمكين لثقافة السّكون وعبادة الأسلاف.

7- أسئلة القلق السّوسولوجي:

إن الوضع البوّائي أنتج قلعا استثنائيا، تمظهر في المقام الأول في الخوف على فقد الوجود الإنساني الحالي بكل أبنيته "التحتيّة والفوقيّة" وأرصدته المادّية والاجتماعية والمعرفية والرمزية.

لا شك، أن العامّة من الناس وانطلاقاً من حسّها المشترك، ينتابها فزع "فقد الحياة" إلا أنّ معالم المفارقة تبدو واضحة على أسئلة السّوسولوجيا بأرصدتها المعرفية الموغلة في "تاريخينية الأوبئة منذ القرن 18". وفي هذا الخضم تنبني إستراتيجية التساؤل: في المقام الأول، أي تاريخ يتم استدعاؤه إذا استلهمنا "باراديغم عبد الله العروي" وفي آية "أرشيقات مهملة" نبحت إذا توخينا مقارنة "ميشال فوكو MICHEL FOUCAULT" منهجا. وعن أي أدوات للحفر يتم استعمالها لكشف عن ما تمّ إخفاؤه لدواعي إستراتيجية مرتبطة بقواعد اللّعب الاجتماعي، أو المراد إخفاؤه في غياهب التّفنّس والعقل إذا استدعينا "السّوسولوجيا الفرويدية LA SOCIOLOGIE FREUDIENNE" يتم هذا النشاط التفكيري في إطار يقظة إبستمولوجية "لمعطى يقع تشكيله" في واقع متحرّك ومنفلت في راهنيتها.

يبدو أن "مقاربة الزّاهن الوبائي" من خلال كلاسيكيات "السّوسولوجيا الأرتدوكسية، بأمبريقيتها التبريرية" عاجزة على فهم التّشكيل الجديد للواقع ومن ثمّ وجب إعلان موتها المعرفي ومن خلفها المقالة المموّلة للجماعة العلمية إذا جاز منطوق "طوماس كوهن THOMAS COHEN وحلفائه في حلقة فيينا". أكيد، إن الإنسانية في حالة قلق أسّس "لأنطولوجيا جديدة" تتوق لإعادة تأسيس "الماهية والوجود والمأل والمنتهى".

وفي هذا الخضم تبدو "السّوسولوجيا الحقّة - بطبيعتها في حالة قلق" هي الأخرى، وقلقها شرعي وصحّي وضروري ومطلب تاريخي في ظل هذا الوضع المأزوم الموسوم في الباتولوجيا الاجتماعية والسياسية "بالكارثة" على كافة الصّعد.

لذا، تبدو أسئلة القلق السّوسولوجي أكثر إلحاحا، وهي من طبيعة "السوسولوجيا الديناميكية" المواكبة لكل التحولات للزمن السّوسولوجي. وبالتالي، فأسئلة البدء، لا بد أن تكون استثنائية في واقع استثنائي بأبنيته ومؤسساته المجتمعية. وفي هذا الزخم، نمنح لأنفسنا شرعية التساؤل سوسولوجيا انطلاقاً من "بارديغمات سوسولوجيا المداعبة لميشال مافيزولي MICHEL MAFFSOLI" أي أننا نتوخى "سوسولوجيا مرنة" لواقع متغيّر ومأزوم، يتوق إلى مؤسّسات بديلة لفاعلين جدد وبإستراتيجيات جديدة. وتأسيساً على ذلك، نتجرأ على صياغة أسئلة القلق السّوسولوجي كالتالي:

- أولاً: هل الزّاهن الوبائي بصدد إعادة تشكيل الأبنية الاجتماعية للمجتمعات المعاصرة؟

- ثانياً: هل نحن على عتبة شكل جديد من التنظيم الاجتماعي؟

- ثالثاً: ما مصير المؤسّسات المجتمعية القائمة؟

- رابعاً: ما مصير المعرفة السّوسولوجية الكلاسيكية التي أبانت عن عجزها الإبستمولوجي على فهم

أسئلة القلق الطارئة؟

لقد فرض "هلع كورونا" على الإنسان الجزائري، ضرورات إعادة النظر في مختلف أنماط التفاعل الاجتماعي التي كانت سائدة قبل، زمن الوباء وأجبر على التخلي عن بعض الممارسات الاجتماعية المأسسة ومن هول راهن الوباء يتساءل بحسّه العفوي عن مأل أبنية مؤسّساته وجذور تمثلاته ومخياله بالمفهوم

"الأركوني" فالمقدّس لم يعد يؤدّي كما كان قبل الوباء والمؤسّسة الدينية وقفت عاجزة باهتة أمام هول الوباء، فأضحت موضوع تساؤل عن دورها المستقبلي بعد أن عجزت عن تقديم الإجابات المقنعة. إننا حقا على عتبة إعادة تشكيل مؤسّساتي ومجتمعي على شاكلة إعادة النظر في طقوس العبادات والمعاملات والاحتفالات والمراسم المتعلقة بالمعاملات وكل أشكال العلاقات الإنسانية.. إننا على عتبة ميلاد الكائن الإلكتروني غير القابل للجاذبية.. إنّه كائن افتراضي.. بدأ يفقد كينونته الاجتماعية.

المراجع:

- 1- محمد عابد الجابري: العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيديولوجي مجلة فكر ونقد – العدد 21 الدار البيضاء، المغرب، 1991.
- 2- وليد عبد الحي وآخرون: آفاق التحولات الدولية المعاصرة دار الشروق، الأردن، 2003.
- 3- Mohamed Arkoun: *pour une critique de la raison islamique*, ed, Maisonneuve, paris, 1984.
- 4- Mohamed Arkoun: *islam hier et demain*, ed., bruchéé, paris, 1993.
- 5- Masamiro Sakamoto : *le japon vers le 21 éme siècle*, in la revue futuribles n –i. Mai, 1997.
- 6- Maheu René: *la civilisation de l'universel* Ed, laffont , paris , 1991 .
- 7- Vincent Boudier: *la mondialisation en question*, Ed, la découverte, paris, 2007.
- 8- Pierre Clusters: *la société contre l'état, recherches d'anthropologie politique* – paris, ed, minuit, 1974.
- 9- Pierre Bourdieu: *questions de sociologie*, ed, minuit, paris, 1980.
- 10- Pierre Bourdieu: *le sens pratique*, ed, minuit, paris, 1980
- 11- François Héran: *la seconde nature de l'habitus*, tradition philosophique et sens commun dans le langage sociologique, revue française de sociologie, t.3. , 1987 .
- 12- Michel Foucault: *la volonté de savoir*, ed ; gallimard, paris, 1976.
- 13- Michel Maffesoli: *la connaissance ordinaire – précis de sociologie compréhensive* – ed, librairie des méridiens, paris, 1985.
- 14- Alfred Schutz: *le chercheur et le quotidien*, ed, méridiens, klincksieck sociales n 05 sept. 85, paris, 1987.